الباب الأول

القاهرة الإسلامية

تاريخ مصر .. فى شارع

طوله الحقيقى ٤٨٠٠ متر .

يعرفه ـ ويعشقه ـ ويعرف قيمته الأجانب من سياح ورحالة ومؤرخين وربما أكثر مما يعرفه ويعشقه أبناء مصر أنفسهم !!

هو أول أكبر وأشهر شارع فى القاهرة المعزية الفاطمية . .

وكما يقف الأجنبى مشدوداً مشدوهاً أمام الهرم الأكبر . . يقف هذا الأجنبى متعبداً خاشعاً أمام مساجد هذا الشارع ومنشآته العبقرية . . فالأجنبى يخلع نعليه احتراماً وخشوعاً أمام كل عظيم وكبير . وهل هناك أعظم من المنشآت الإسلامية فى هذا الشارع . . التى تمثل ستة عصور إسلامية كبرى : فاطمية وأيوبية ومملوكية بحرية ثم مملوكية برجية جركسية . . ثم عثمانية تركية حتى نصل إلى عصر محمد على باشا الكبير . . فهل هناك فى مصر كلها ، بل فى غير مصر ، من الشوارع ما يحمل عبق كل هذه العصور بكل جلالها وقيمتها وعظمتها ؟

هو الشارع الأعظم ـ هكذا سماه كل الرحالة والمؤرخون العرب ـ وهو أول شارع شقه ورفع أساسه جوهر الصقلى القائد الذى فتح مصر وبنى القاهرة والأزهر . وسماه البعض : شارع المعز لدين الله ، ، فيه من الآثار الإسلامية مساجد ينحنى أمامها أعظم البناة . . وفيه المدارس التى تعبر عن طبيعة الأمة المصرية من تسامح وانفتاح حيث التعليم على المذاهب الإسلامية الأربعة . . وفيه أعظم مستشفيات العصر . حيث كان يعالج المريض ويصرف له الدواء والغذاء والملبس ثم يخرج للحياة ومعه ما يبدأ به عمله من جديد . . البيمارستان !!

وفيه الخانقاه : دار التعبد الصافى البعيد عن ملذات الدنيا ، حيث عاش المتصوفة

أيامهم ولياليهم تقرباً للمولى عز وجل . . وفيه ما يروى عطش ابن آدم ودابته أيضا فى حر الصيف : السبيل الذى كان السلاطين والأمراء والأغنياء يتسابقون لإقامته حيث يتجمع الناس للتجارة والمرور . . وفيه «الكتاتيب» . . ومع كل هذا فيه المحلات الكبرى : الوكالات التى تستقبل تجار الشام واليمن . العراق وأفريقيا . .

عمره الآن تجاوز الألف عام . . ترى ما هى الصورة التى بقى عليها حتى الآن وكيف صمد وعاش أيام العز والجاه والعظمة والسلطان . . وبقى ثابتاً رغم المحن التى مر بها أيام الانكسار والهوان . ورغم كل ما أصابه إلاّ أن مابقى يدل على عظمة ما أنشأه سلاطين مصر وحكامها : إما تقربا للعلى القدير . . أو للشعب الذى وقف وراء كل هذا بعرقه وكده . . علمه وفنه . .

. . تعالوا نزور التاريخ . . فى الشارع الذى يروى تاريخ القاهرة المدينة ذات الألف مئذنة . . والألف عام ويزيد قليلاً . .

عندما فتح جوهر القائد مصر باسم الفاطميين كان أول ما فكر فيه أن ينشىء عاصمة للدولة الجديدة . . ومسجداً . مدينة يحكمون منها مصر بكل عظمتها ثم لتصبح بعد قليل عاصمة الدولة التى تمتد من الشام والحجاز واليمن . . إلى أفريقيا الشمالية كلها . .

والمسجد هو الجامعة الجامع لتدريس المذهب الدينى والسياسى الجديد للدولة الجديدة . . الأزهر .

وعندما أنشأ القاهرة جعل جوهر فى السور الشمالى بابين هما باب النصر وباب الفتوح . وجعل فى السور الجنوبى بابين متجاورين هما بابا زويلة . . وجعل من باب الفتوح وباب زويلة شارعاً . وعلى الجانب الشرقى من الشارع بنى قصراً للخليفة هو القصر الشرقى الكبير ليقيم فيه « صاحب مصر المعز لدين الله » وعندما تولى ابنه العزيز حكم مصر أنشأ قبالة هذا القصر قصراً جديداً أصغر قليلاً سمى بالقصر الغربى وهذا الجزء من هذا الشارع ـ الأعظم ـ عرفه الناس باسم : بين القصرين !

ولما استدعى الخليفة الفاطمى المستنصر واليه على فلسطين بدر الجمالى الأرمنى الأصل لينقذ القاهرة أسرع بدر الجمالى الذى لقبوه بأمير الجيوش إلى تحصين القاهرة ،

فنقل الجمالى ما بين السورين الشمالى والجنوبى إلى موقعيهما الحاليين على بعد ١٥٠ متراً وأبقى على بابى النصر والفتوح . . ولكنه جعل فى السور الجنوبى باباً واحداً هو باب زويلة . وهكذا امتد الشارع الرئيسى بين هذه الأبواب .

وإذا كان العامة قد أطلقوا اسم «بين السورين» على المنطقة الممتدة الجديدة وينطقها العامة خطأً «بين الصورين» فإن المؤرخين والرحالة أطلقوا على هذا الشارع الرئيسى : الشارع الأعظم أو شارع القاهرة . أو القصبة . وهو ما نعرفه الآن باسم : شارع المعز لدين الله .

ولكن الشارع لم يتوقف عن النمو . إذ مع الزمن امتد شمالاً خارج باب الفتوح ـ ولاحظ الاسم عندما كانت تخرج منه جيوش مصر للفتح ـ إلى ميدان الجيش وحتى حى الظاهر .

وامتد الشارع جنوباً من باب زويلة الى مقام السيدة نفيسة . . ثم إلى الفسطاط . ليصل طول الشارع الأعظم إلى حوالى ٤٨٠٠ متر . . ولكننا سنقصر زيارتنا هذه على الجزء الأقدم أى من باب الفتوح إلى باب زويلة وطوله هنا حوالى ١٥٠٠ متر ونترك الباقى شمالاً خارج باب الفتوح ـ ٩٠٠ متر ـ وجنوباً من شارع القلعة الحالى إلى السيدة نفيسة ـ ١٦٠٠ متر ـ إلى زيارة أخرى ربما تمتد أيضاً إلى باقى الشارع من باب زويلة حتى التقاطع مع شارع القلعة ـ ٨٠٠ متر .

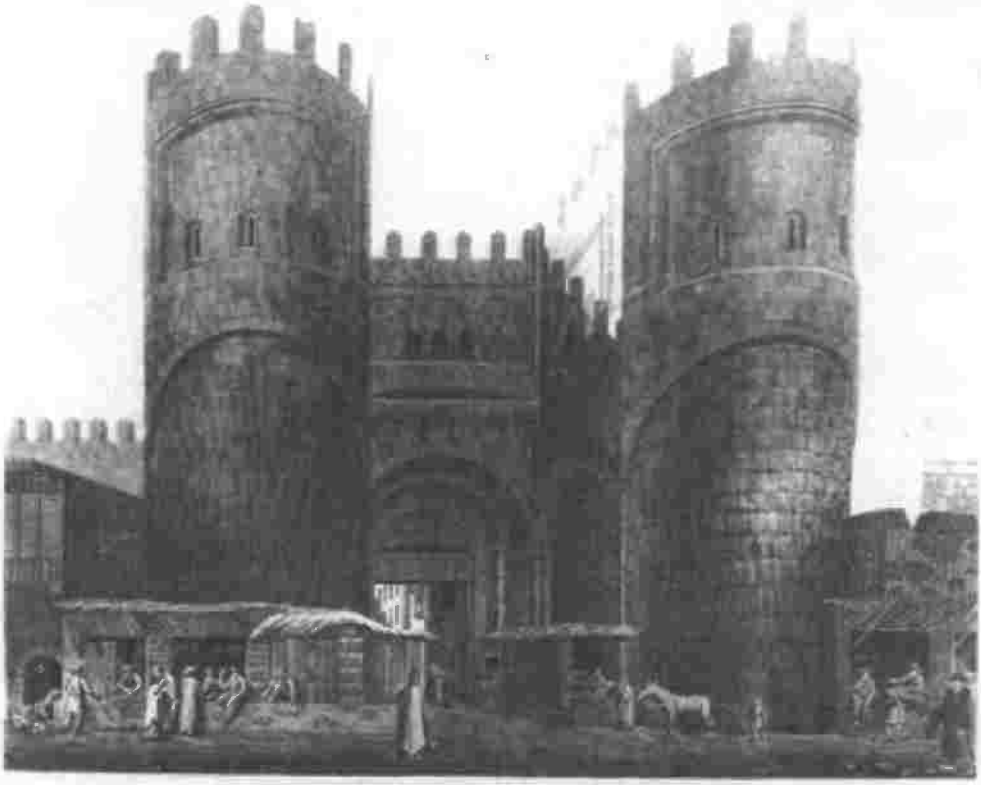

باب الفتوح الذى كانت تخرج منه الجيوش المصرية للغزو والفتح

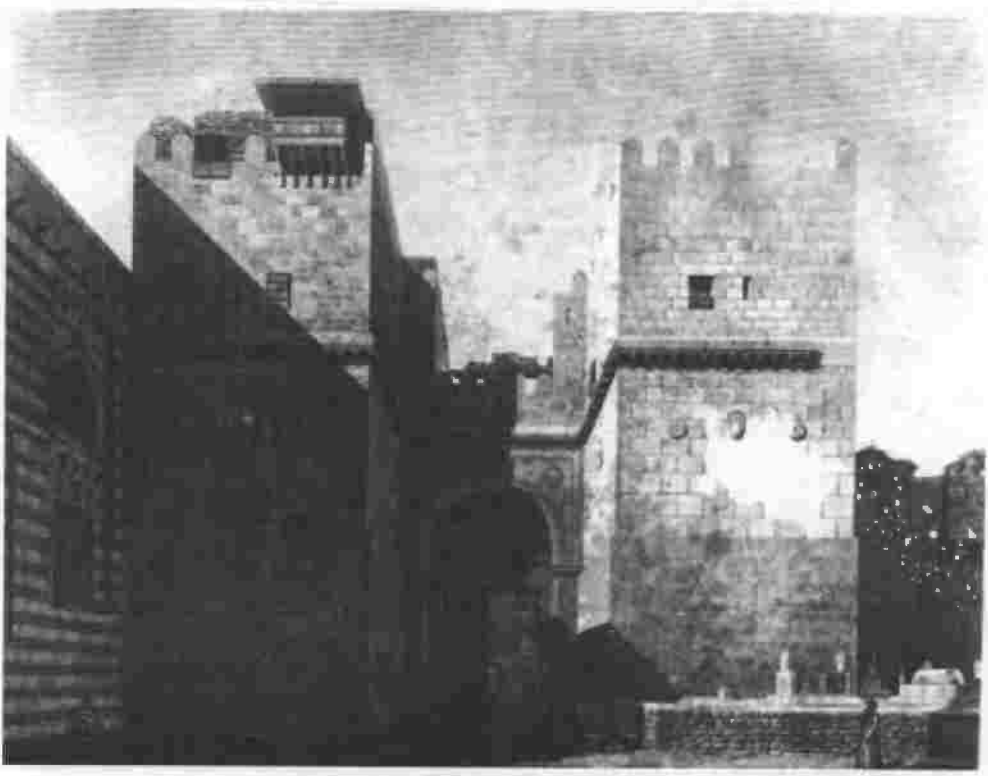

بوابة باب النصر وكانت تدخل منه الجيوش المصرية عائدة بعد أن تحقق النصر على الأعداء .

(شارع لكل العصور !)

هو فعلاً كذلك . شارع كل العصور !!

. . ففى العصر الفاطمى ـ حيث النشأة الأولى ـ نعيش مع الشارع عصر الدولة الوليدة التى جاءت غريبة إلى مصر فدخلت قلوب كل المصريين بما أدخله من مظاهر الاحتفالات الدينية والدنيوية وحازت حب الناس بما قدمته من خلال «ذهب المعز» وكرم كل من جاء بعده من سلاطين ووزراء . . ومع هذا العصر الفاطمى بزغت أنوار حضارة إسلامية جديدة . وانفعل الفن المصرى ـ الإسلامى مع أفكار وأبعاد هذه الدولة، فنشأ فن مصرى متكامل وثبت العمارة الإسلامية فيه وثبة هائلة اقتربت من الكمال ، عندما امتزجت الخبرة المعمارية المصرية القديمة بمتطلبات العصر الجديد فجاءت الإنشاءات الكبرى وقتها . . بعد أن هضمت المدرسة المعمارية المصرية كل أساليب العمارة التى جاءت بها الدولة الفاطمية من المغرب ممزوجة بفن العمارة الأندلسية والبيزنطية ، بعد ذلك . وكان أبرز معالم المدرسة المعمارية المصرية الجديدة استخدام الجص والخشب والمحاريب الخشبية وارتقت القبة . . مع انتشار البناء بالأحجار بجانب الطوب وتطور فن بناء المآذن .

. . وفى العصر الأيوبى ـ رغم أنه كان عصر جهاد ودفاع ورد للغزاة الطامعين إلا أنه ترك لنا منشآت عظيمة . ورغم أن عصر هذه الدولة لم يتجاوز ٨٠ عاماً بينما ظلت مصر دولة فاطمية زهاءقرنين من الزمان ـ ورغم أن معظم منشآت الأيوبين فى مصر أبيدت تقريباً ، إلا أن ما بقى ـ على قلته ـ يعطى فكرة طيبة عن ازدهار العمارة والفنون فى عصرهم . .

وربما تكون المدارس هى أبرز هذه العمائر . ومنها المدرسة الكاملية التى أنشأها الملك الكامل فى هذا الشارع الأعظم . كما برعوا فى إنشاء القباب والمنائر . ويمكن أن نعتبر القباب فنا أيوبياً واضحاً ومنها ما بنى من الخشب المكسى بالرصاص ، ومنها القباب الحجرية وأبرز مثال لها قبة الصالح نجم الدين أيوب آخر سلاطين الأيوبيين ، إذا أسقطنا فترة حكم ابنه توران شاه لقصر مدتها . .

وفى العصر الأيوبى شاع استخدام خط النسخ بجانب الخط الكوفى الذى كان سيد

الخطوط قبل هذا العصر . وازدهرت صناعة الخشب والنحاس وظهر الزجاج الملون فى الشبابيك . . وعاد فن الفسيفساء المذهبة فى المحاريب .

تمصير العمارة الإسلامية :

. . ويسلمنا العصر الأيوبى إلى عصر المماليك البحرية ـ أكثر من ١٣٢ عامًا ـ لنصل إلى العصر الذهبى لهذا الشارع الأعظم حيث تنافس الملوك والسلاطين والأمراء فى تشييد المبانى المعمارية الإسلامية وأدخلوا مجموعات متكاملة . فلم يعد السلطان بانيا للمسجد وحده . . بل وجدنا المجموعات : كما فى مجموعة الناصر محمد بن قلاوون الذى أنشأ أول وزارة للأشغال فى تاريخ مصر . . فوجدنا فى المجموعة الواحدة المدرسة والمسجد . والخانقاه . أو المدرسة والمسجد والبيمارستان .

وفى هذا العصر تم تمصير العمارة الإسلامية فى مصر ، وأخذت كما يقول حسن عبد الوهاب ـ الأثرى الذى عشق الآثار الإسلامية فى مصر ، وتخصص فى دراسة مساجدها بالذات ـ « طابعًا خاصًا ميزها عن باقى الفنون وظهر التحسن واضحًا فى أعمال الخشب ، وظهرت صناعة جديدة هى تكوين الجصّ المنقوش وتغطيته بزجاج رقيق . بل وظهرت مع التمصير تأثيرات أندلسية وأخرى فارسية خصوصًا فى القباب والمنارات . بل وظهرت كتابة التاريخ بالأرقام مع تطعيم الخشب بالنحاس . . كما انتشر إنشاء الحمامات والثريات النحاسية . ووضح هذا فى مدرسة الظاهر ومدرسة وبيمارستان وقبة السلطان قلاوون وأعمال ابنه فى هذا الشارع الأعظم » .

العصر الماسى :

** ونصل إلى عصر المماليك الجراكسة أو البرجية الذين حكموا مصر حوالى ١٣٤ عامًا وفيه ازينت العمارة الإسلامية وأخذت زخرفتها تمامًا حيث ازدادت المنارة رشاقة وجمالاً . كما غلب تصميم المدرسة على المسجد . وتم تحلية القباب من الخارج بالنقوش وبنيت إما بالأحجار بالكامل . . أو مع الطوب . حتى أطلق المؤرخون على القاهرة « مدينة القباب والمنارات . وارتقت صناعة النجارة فى الأسقف . وتطورت المقرنصات وكثر استخدام الزخارف فى واجهات المدارس والمساجد مع تغطية الأسقف بالنقوش . . ومن أبرز الإنشاءات المعمارية فى الشارع الأعظم ـ شارع المعز ـ مدرسة

وخانقاه ومسجد السلطان الظاهر برقوق ١٣٨٤ ـ ١٣٨٦ م . وجامع السلطان المؤيد ١٤١٥ ـ ١٤٢٠م ومسجد السلطان الغورى ١٥٠٤م ثم منزل ومقعد وسبيل وكتاب نفس السلطان قانصوه الغورى ١٥٠٣ ـ ١٥٠٤م . وهو آخر سلاطين المماليك الجراكسة الذى حاول وقف المد العسكرى والسياسى العثمانى على مصر والشام ، ولكنه هزم بسبب خيانة واليه فى حلب وحماه . . ونقول آخر سلاطين المماليك لأن نائبه ثم خليفته طومان باى كرس أيامه لمحاولة التصدى للقوات العثمانية الغازية التى زحفت على مصر بعد هزيمة الغورى فى موقعة مرج دابق عام ١٥١٦ ـ فى أعالى الشام ـ ودخلت قوات سليم الأول العثمانى القاهرة فى يناير ١٥١٧م .

ومن المؤكد أن عصر المماليك الجراكسة ـ وإنشاءاتهم العظيمة فى شارع المعز ـ هو العصر الماسى للعمارة المصرية ـ الإسلامية ثم دخلت مصر بعده إلى عالم النسيان وذوبان الشخصية المصرية سياسيًا وعسكريا ومعماريًا وحضاريًا فى ظلام العصر العثمانى لمصر الذى دام أربعة قرون بالتمام والكمال إذ دخلت مصر فى حوزة العثمانيين ١٥١٧ م ونزعت عنها انجلترا السلطان العثمانى وفرضت حمايتها على مصر عام ١٩١٤م .

عصر الضياع :

وشهد عصر ضياع السيادة المصرية ظهور عمارة جديدة تركية مطعمة بالتأثير البيزنطى الكنسى . وأبرز مثل على هذا مسجد سليمان باشا فى القلعة بعد ١٣ عامًا فقط من الحكم العثمانى لمصر ، ومسجد سنان باشا فى بولاق بعد ١٠٠ عام . كما وجدناه فى شارع المعز فى التكية التى أقامها سليمان باشا فى السروجية . ثم دخلت مصر عصر الظلام العثمانى . . رغم محاولات محمد على باشا الإنشائية المعمارية التى أبرزها مسجده فى قلعة صلاح الدين ، إذ جاء هذا المسجد على غرار مسجد السلطان أحمد فى الآستانة!!

الخانقاوات والتكايا :

والآن تعالوا نصنف المنشآت والآثار الإسلامية العظيمة فى هذا الشارع الأعظم ـ

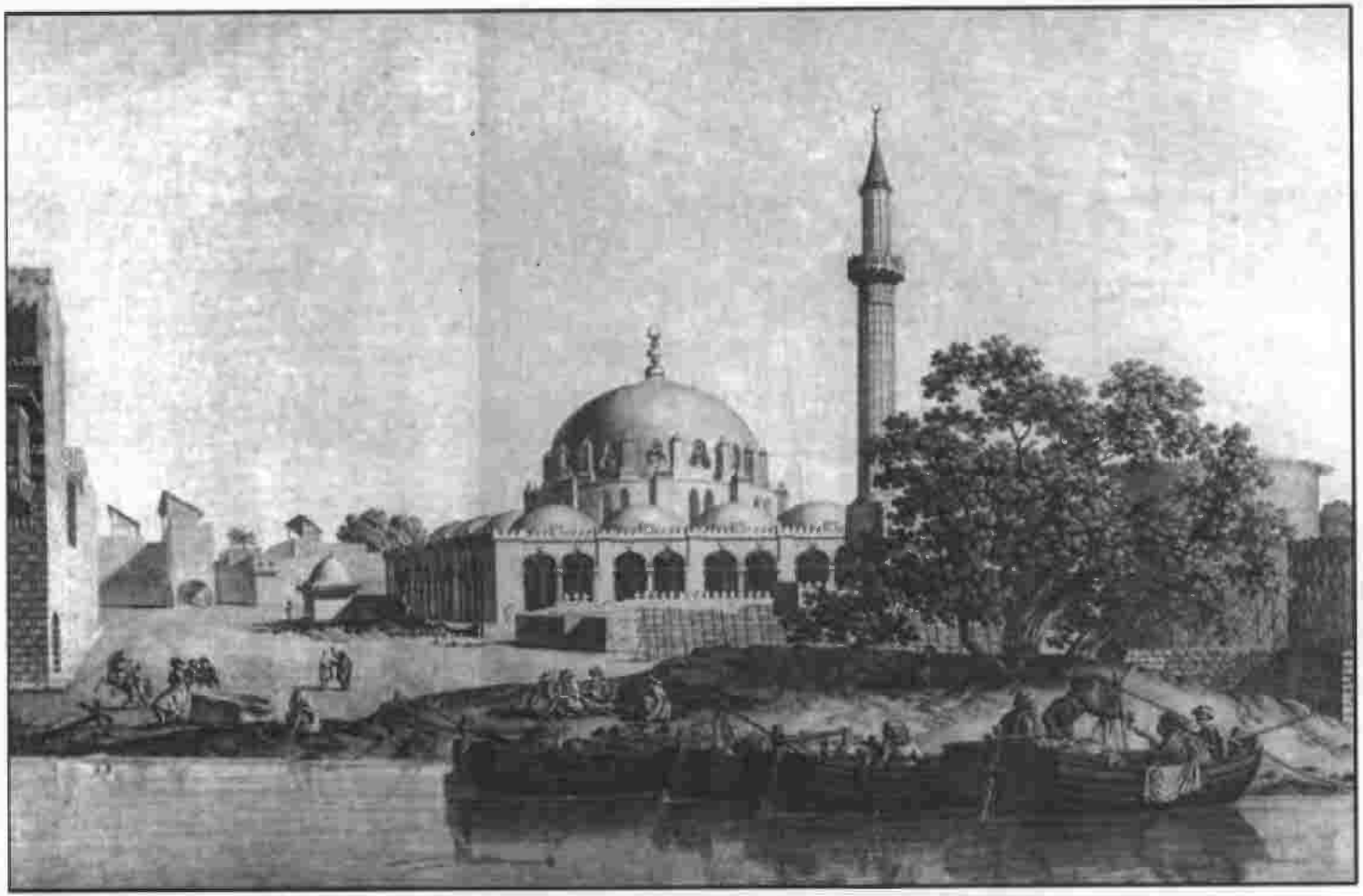

مسجد بولاق الكبير أو مسجد سنان باشا الذى كان يطل على ميناء القاهرة عند بولاق . .
والصورة من رسم الفنان الفرنسى بلزاك أحد فناني الحملة الفرنسية .

شارع المعز لدين الله ـ والشوارع والحوارى المتفرعة منه والمتقاطعة عليه ، هذا الشارع الذى نعتبره متحفًا معماريًا حيا . .

** فغير المساجد الكبيرة ، انتشرت دور العبادة التى خصصت للصوفية . وشهد القرن الثالث عشر ثم القرن الرابع عشر نشاطًا هائلا فى إنشاء الخانقاوات مثل مسجد وخانقاه إيدكين البندقدارى « ١٢٨٤م» . وخانقاه بيبرس الجاشنكير « ١٣٠٦ م» وخانقاه خوندام أنوك « ١٣٤٩م » وخانقاه وقبه الأمير شيخو « ١٣٥٥م » ومسجد وخانقاه نظام الدين « ١٣٥٦م » وخانقاه الناصر فرج بن برقوق « ١٤٠٠م » وفى نفس العام نجد خانقاه سعد الدين بن غراب . . ثم خانقاه ومسجد السلطان برسباى «١٤٣٢ م » وأخيرًا قبة وخانقاه ومدرسة السلطان الأشرف إينال « ١٤٥١م » .

وبعد الخانقاوات وجدنا التكايا وارتبطت إلى حد كبير بالحكم والعصر العثمانى بما تمثله هذه التكايا من تطوير ـ نحو الكسل ـ للخانقاه . . والغريب أن أول تكية عثمانية بمصر أقيمت بعد عامين فقط من سقوط مصر تحت قبضة الحكم العثمانى . . فوجدنا تكية وقبة الكلشنى « ١٥١٩ ـ ١٥٢٤ » وتكية السليمانية « ١٥٤٣م » وتكية السلطان محمود « ١٧٥٠م » ثم تكية الرفاعية « ١٧٧٤ م » .

سبيل لله .. يا عطشان !

ولكننا نجد حسنة تذكر للعصر العثمانى فى مصر . فإذا كنا قد عرفنا نظام «السبيل» لتوفير المياه العذبة للمارة والسكان فى العصر المملوكى مثل سبيل السلطان الناصر محمد بن قلاوون « ١٣٢٦م» وسبيل الوفائية « ١٤٤٢ م» واستمرار بناء الأسبلة المفردة . وأحيانًا نجد منشآت ثنائية الهدف أى « سبيل وكتّاب » أى إرواء العطشى للماء . . وإرواء العطشى إلى العلم . . وربما كان أول مثل لهذا الهدف المشترك هو « سبيل وكتاب» خسرو باشا ١٥٣٥ م أى بعد ١٨ عامًا فقط من الفتح العثمانى لمصر . وسبيل وكتاب وقف قيطاس « ١٦٣٠ م» وسبيل وكتاب أمين أفندى هيزع « ١٦٤٦ م» وسبيل وكتاب وقف أوده باشى « ١٦٧٣م» وسبيل وكتاب الأمير عبد الرحمن كتخدا«١٧٤٤م» وفى نفس العام سبيل وكتاب الشيخ مظهر . وهكذا . ولا ننسى مسجد وسبيل وكتاب

سبيل الأمير عبد االرحمن كتخدا . . وهو مثال للعمارة التركية التى تأثرت بها العمارة المصرية الإسلامية [والصورة من القرن التاسع عشر] .

سليمان أغا السلحدار على شارع المعز نفسه قبل أن نصل إلى تقاطعه مع شارع أمير الجيوش الجوانى .

** ثم وجدنا عملاً خيريا ثنائيًا آخر . فإذا كان الأول « سبيلا وكتابًا » لبنى الإنسان ، فإننا نجد من ينشىء سبيلاً لإرواء عطش الإنسان . . وينشىء بجواره حوضًا لإرواء عطش الدواب ولهذا وجدنا سبيل وحوض محمد أبو الذهب « ١٧٧٤ م» وربما ليرحمه الناس والدواب أيضًا بعد فعلته الشنعاء عندما خان سيده وبطل أول محاولة استقلالية بمصر عن تركيا على بك الكبير وبسبب هذه الخيانة عادت مصر . . ولاية عثمانية من جديد !!

كما نجد حوض السلطان قايتباى . .

الحمامات .. وحضارة النظافة :

** وبجانب الأسبلة والكتاتيب التى أقيم معظمها طلبًا للخير وأوقف عليها أصحابها الأوقاف من أراض زراعية ومبانٍ . . نجد مظهرًا آخر يؤكد حرص المصريين على النظافة الخاصة . تلك هى بناء الحمامات العامة . . وهى المنشآت التى بهرت الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر واعتبروها مظهرًا حضاريًا أفضل مما كان موجودًا فى أوربا نفسها فى نفس الفترة . . وكانت هناك حمامات للرجال وأخرى للنساء . أو حمامات واحدة ولكن تخصص أوقات للرجال وأخرى للنساء . .

ومن الحمامات التى انتشرت فى منطقة شارع المعز وحوله نجد حمام السلطان المملوكى إينال « ١٤٥٦م » . وحمام الملاطيلى « ١٧٨٠ م» وفى نفس القرن الثامن عشر نجد حمام السكرية وحمام الطمبلى وفى القرن التاسع عشر نجد حمام العدوى . . وحمام الأمير بشتاك وحمام السلطان المؤيد على بعد أمتار غرب مسجده . .

الوكالات التجارية :

** وعرف الشارع والمنطقة بالتالى نظام « الوكالات » . . وكانت عبارة عن أحواش كبيرة تحيط بها المحال التجارية متنوعة النشاط ، تستقبل التجار والتجارة المحلية المصرية . . وأيضًا التجار والبضائع المستوردة .

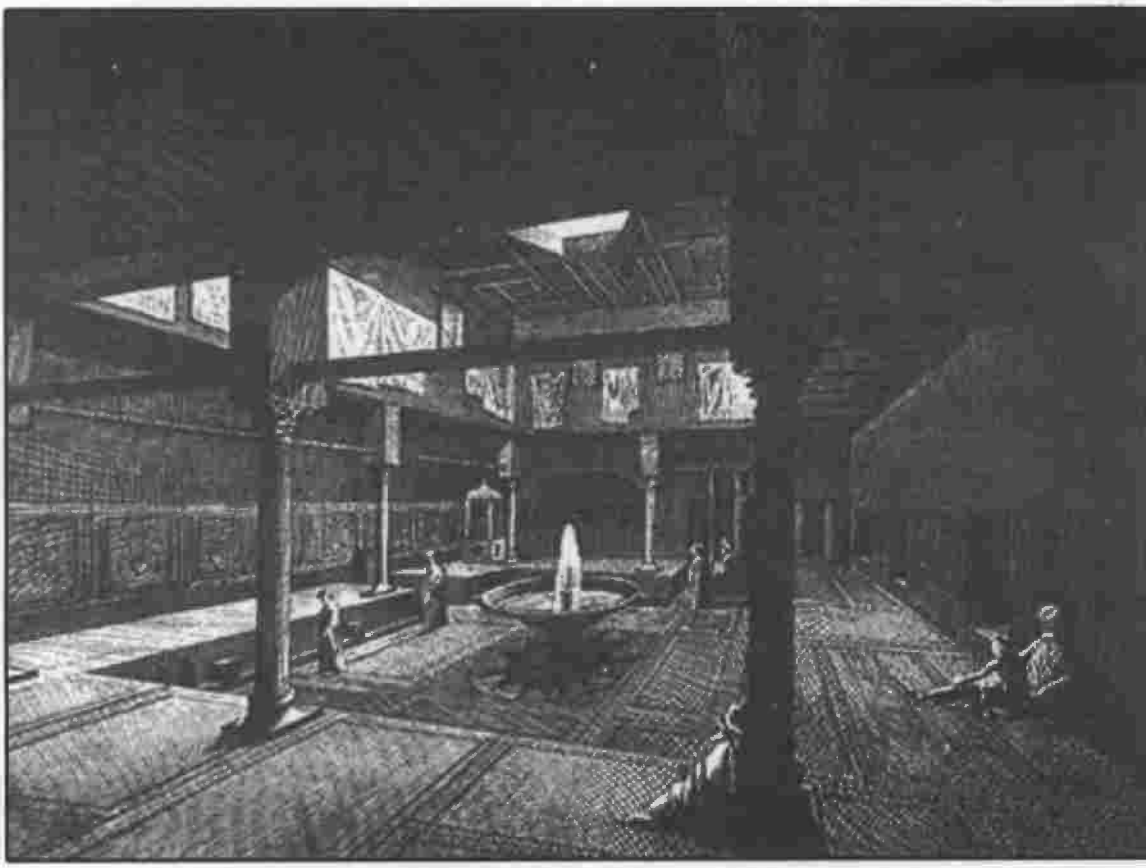

صورة من الداخل لأحد الحمامات العامة التى كانت تشتهر بالقاهرة فى القرون الوسطى .
والصورة رسم الفنان الفرنسى بروتانا أيام الحملة الفرنسية على مصر

فوجدنا وكالة وسبيل عباس أغا . ووكالة وسبيل وقف النقارى . . وإذا اتجهنا شمالاً للقادمين من ميدان العتبة نجد مباشرة وكالة السلحدار ووكالة بدوية بنت شاهين ووكالة تغرى بردى ووكالة الدهبى ضمن مجموعة متكاملة هى سبيل وكتاب ووكالة جمال الدين الدهبى ، ثم وكالة وسبيل الكردانى ، ووكالة محمدين ، ووكالة وقف الحرمين .

وغير بعيد على مرمى البصر يمين الشارع نجد عند شارع الضبيبة بين شارعى المعز والجمالية وكالة قوصون .

بين المندرة ..وبيوت الأمراء والأعيان

وإذا كانت القاهرة الفاطمية والأيوبية والمملوكية قد عرفت « المندرة » أى « المنظرة » التى كان يجلس عليها السلطان ليمتع عينيه ببحر الخليج . أى فتح السد عندما يرتفع منسوب فيضان النيل . . أو ليستعرض الجيوش المنطلقة للفتح عند باب الفتوح ، أو العائدة من الفتح والغزو منتصرة عند باب النصر !! فإن كثيرًا من السلاطين والأمراء أنشأوا « السقيفة » أو القاعات للراحة والاستظلال ، ولذلك وجدنا فى شارع المعز وعلى مرمى البصر منه مجموعة « منزل ومقعد وقبة وسبيل وكتاب قانصوه الغورى » . . ووجدنا سقيفة وسبيل مصطفى جوربجى مستحفظان ومقعد رضوان بك وقاعة ومقعد أحمد كتخدا الرزاز وقاعة الدردير شرق شارع المعز . .

ولم تتوقف العمارة المصرية الإسلامية عند المساجد والمدارس والقباب والأسبلة . . ولكن ترك لنا الزمن عدة قصور أو بيوت لتظل شهادة صدق على عظمة هذه العمارة . .

** ففى شارع المعز وأمام مجموعة قلاوون نجد بيت القاضى « القرن ١٩ » . ثم نجد قصر الأمير المملوكى بشتاك « ١٣٣٤ ـ ١٣٣٩م » الذى ترك أيضًا حمامًا أنشأه عند شارع سوق السلاح .

وغير بعيد عن قصر بشتاك نجد المسافر خانة « ١٧٧٩ ـ ١٧٨٨م » . . أما منزل السحيمى المشهور فيقع شمال جامع الأقمر وندخل إليه من شارع المعز يمينا قبل أن نصل إلى شارع الجمالية . . وهذا الشارع الذى وصلت شهرته إلى أوربا بنى فى الفترة من ١٦٤٨ إلى ١٧٩٦ م ومنزلى الألايلى والقياتى اللذين بنيا فى القرن ١٨م ومنزل جمال

الدين الذهبي « ١٦٣٧م » وواجهة منازل وقف رضوان بك فى شارع الخيامية التى أقيمت فى القرن ١٧م .

● ● ●

ولم يكن غريبًا أن يمثل هذا الشارع مصر كلها . فقد تجمعت فيه كل أنواع الحرف من صناعة وتجارة . حتى أصبح « قصبة مصر » ولهذا أطلقوا عليه اسم « الشارع الأعظم » .

فإذا طفنا بهذا الشارع والمناطق المحيطة به ، والحوارى . . نجد قلب المدينة الصناعى والتجارى . .

ففى عصر الفرسان والحرب والقتال نجد « شارع السيوفية » حيث صناعة وتجارة السيوف . وفى هذا الشارع أنشأ صلاح الدين الأيوبى المدرسة السيوفية وأوقفها على الحنفية أى الدارسين على المذهب الحنفى . . ومحل هذه المدرسة الآن الزواية المعروفة باسم الشيخ مطهر . .

ونجد شارع « السروجية » حيث تباع تجهيزات الخيول للفرسان من سروج مطعمة بالذهب والفضة . وأيضًا اللبد أو اللباد الذى يوضع على ظهر الخيل تحت السرج الجلدى لحمايته من الاحتكاك .

ونجد « سوق السلاح » وكانت مخصصة لبيع القسى « جمع القوس » والنشاب والزرديات وغيرها من أسلحة الفرسان والمشاة . .

ثم نجد سوق المهامزيين وسوق اللجميين . والأولى نسبة إلى المهماز بأسنانه المدببة لغمز الجواد وحثه على زيادة السرعة . والثانية أى اللجميين نسبة إلى اللجام الذى يقاد به الجواد . وفى زمن العز والجاه كانت المهاميز واللجم تصنع من الذهب أو الفضة ، حسب درجة المملوك أو الأمير الفارس . وفى نفس السوقين كانت تباع وتصنع بدل الخيل من الفضة الخالصة . . فالعلاقة وطيدة بين الفارس والفرس . ومنها أيضًا كانت تباع السروج العربية . وبالقرب منها نجد « سوق الحوائصيين » وهى السيور التى يشد بها حزام سرج الفرس . وكان الصناع يغالون فى صنعها حتى عملت من الذهب الخالص المرصع بالجواهر ، وكان السلطان يوزعها على مماليكه وفرسانه . .

** ونجد « شارع الخيامية » وكانت صناعة وتجارة رائجة . حيث تصنع خيام السلاطين والأمراء والأعيان . وكانت السرادقات تنصب وتركب فى المواسم والأعياد والاحتفالات مثل « جبر الخليج » أى فتح الخليج عندما يصل ارتفاع مياه فيضان النيل إلى ١٦ ذراعًا حسب مقياس الروضة . ومازالت كتب الرحالة والمؤرخين تتحدث بإسهاب عن احتفالات شهر رمضان والأعياد . كما كانت صناعة وتجارة الخيام تنشط خلال الحروب لتوفير أماكن معسكرات ومخيمات الجيوش . وكانت الخيامية فنًا رفيعًا تخصصت فيه قلة من الأسر كانت تتوارثها أبًا عن جد . . والآن تحولت صناعة الخيام إلى صناعة تقليد ، أى من صناعة يدوية فنية بديعة إلى قماش مطبوع بالألوان . وشتان بين الأصل والتقليد !!

** ونترك صناعة وتجارة الحرب والسلاطين والأمراء لنصل إلى صناعة ارتبطت باحتياجات المساجد والأبواب والقلاع . . وفى مقدمتها نجد « سوق الكفتيين » فى منطقة الفحامين . والكفت أو التكفيت هو فن تطعيم الأوانى النحاسية بالذهب أو الفضة أو النحاس . وكانت صناعة رائجة لا تكاد تخلو منها أى دار فى مصر . مثلاً نجد باب مسجد السلطان برقوق ومدرسته « ١٣٨٤ ـ ١٣٨٦م » وقد صنع من الخشب عليه طبقة كاملة من النحاس الأصفر . . والباب النحاسى هذا مطعم بالفضة ونجد اسم السلطان الظاهر برقوق محفورًا أو بارزًا ومكررًا على الباب الخارجى ، وعلى الأبواب الداخلية . ونجد الدعاء « أعز مولانا السلطان الملك الظاهر برقوق أعز الله نصره » . ونفس النظام من أبواب نحاسية مطعمة بالفضة بالدعاء للسلطان يتوسطه الختم السلطانى « مكتوب هكذا : « برقوق السلطان الملك الظاهر عز نصره » .

أيضًا لم يكن جهاز أى عروس يخلو من عدة قطع من النحاس المكفت من دكة العروس التى كانت أشبه بسرير من خشب مطعم بالعاج أو الصدف أو من خشب . . حسب مقام العروس . .

** ونجد « شارع الصنادقية » حيث تباع صناديق العروس التى كانت ضرورية قبل معرفة الدواليب الخشبية الحالية ونشطت صناعة هذه الصناديق . وكانت تطعم بالصدف والعاج . . وامتدت هذه الصناعة فى عصر إنشاء المساجد والمدارس الكبرى . لهذا نجد فى هذه المساجد الكبرى « دكة المصحف » التى كانت تطعم بسن الفيل

والعاج . تمامًا كما نشطت صناعة الزجاج الملون المعشق . ونلاحظ هنا الربط الحضارى بين انتعاش بناء المساجد والمدارس والخانقاه . . وانتعاش العمارة ككل . وذلك لأن اهتمام السلاطين والأمراء ببناء المساجد وتزيينها انعكس على الحركة المعمارية كلها . وكما وجدنا هذه الصناعات المتقدمة فى المساجد والمدارس وجدناها أيضًا فى قصور الأمراء «قصر الأمير بشتاك» كما وجدناها فى الكتاتيب والأسبلة . . وفى بيوت الأعيان أيضًا . .

ونشطت أيضًا « صناعة الرخامين » والقزازين .

** ثم نصل إلى الحياة العادية والنشاط التجارى العادى فنجد أسواق الفحامين والنحاسين والوراقين والعطارين والمناخلية والسكرية . والموازين والمغربلين والعقادين والقربية أى صناعة وتجارة القرب المصنوعة من جلد الحيوانات . ويلاحظ أن حى القربية كان قريبًا من المدابغ عندما كانت قرب ميدان باب الخلق قبل نقلها إلى باب اللوق قرب بداية شارع شريف الحالى الذى كان اسمه شارع المدابغ ، قبل أن تستقر المدابغ فى موقعها الحالى المجاور لسور العيون . وطبعا كانت للقرب سمعة عالية إذ كانت القاهرة وكل مدن مصر تعتمد فى توزيع المياه على السقايين الذين كانوا يستخدمون القرب الجلدية هذه . . وكانت قرب المياه تنقل على الحمير . أو على عربات الكارو . وكان لهم حى يقيمون فيه خلف باب الخلق كما كان نفس الشىء للفرانة أى عمال الأفران . وكلها كانت فى الشارع الأعظم ـ شارع المعز لدين الله ـ والحوارى المتفرعة منه أو الداخلة إليه . .

وكما انتهى عصر الفروسية والفرسان وعصر البناة العظام انتهت كل هذه الحرف من الشارع . . ولكن بقيت الأسماء ثابتة راسخة على لوحات الشوارع والحوارى والأزقة على طول هذا الشارع العظيم . .

نعم انتهى عصر الخيامية والسيوفية وسوق السلاح والصنادقية والمغربلين . . فلا حبوب أو غلال ولا عمال يغربلون الغلال للمشترين ولا سروجية . . فقد انتهى عصر السلاطين والفرسان ليحل محله عصر صناعة الشيشة .

لقد انتهى عصر الفرسان . . ليسود عصر الشيشة ومستلزمات المزاج !!

أكشاك لبيع الشيشة والروائح :

** وإذا أردنا أن نتتبع على الأقدام الآثار العظيمة التى يضمها هذا الشارع المتحفى الحى فإننا سنعطى مثلاً لمنطقتين :

* الأولى يسارًا للصاعد إلى شارع الأزهر مع تقاطعه مع شارع المعز ، حتى نصل إلى جامع الحاكم بأمر الله ثم باب الفتوح . .

* والثانية يمينًا أى نبدأ من مجموعة السلطان الغورى حتى نصل إلى باب زويلة وجامعى المؤيد والصالح طلائع . .

** فى المنطقة الأولى ربما يكون أول بناء ضخم يقابلنا على يسار شارع المعز لدين الله هو المدرسة الأشرفية التى بناها السلطان الأشرف برسباى المملوكى بين عامى ١٤٢٣م و ١٤٢٤م ويلفت نظرنا الباب العتيق المطعم بالنحاس بنقوش رائعة . والمسجد نفسه مرتفع عن منسوب الشارع بهدف المحافظة على طهارة المسجد . وهو أسلوب نجده أيضًا أكثر وضوحًا فى درة مساجد القاهرة : مسجد السلطان حسن فى القلعة . . ويتوسط المسجد الصحن السماوى المفتوح بهدف التهوية والتبريد وأرضية من الرخام للاحتفاظ بدرجة الحرارة أو البرودة .

وهذا المسجد المدرسة فى حالة سيئة للغاية . رغم أنه خضع لأعمال الصيانة والترميم فى عهد خديو مصر عباس حلمى الثانى عام ١٣٣٠ هـ تحت إشراف لجنة حفظ الآثار العربية .

والغريب أن فى آخر زيارة لى لهذا المسجد بدأت عملية تنظيف يوم الجمعة ٢١ ابريل ١٩٩٥ هدفها إزالة الأتربة وتنظيف واجهات المدرسة والجامع مع عمليات عزل ودهان للأجزاء الخشبية الخارجية فقط . . دون أن تمتد عمليات الترميم والصيانة إلى ما هو بالداخل رغم سوء ما وصلت إليه حال المدرسة والمسجد وجدرانهما !! أما جدران المسجد الخارجية فتكاد تختفى سواء بين واجهته على شارع المعز . . أو على شارع جوهر القائد . . فقد احتلت الدكاكين وأكشاك بيع الروائح والفوط ومعدات تدخين الشيشة ، احتلت واجهات وجدران المسجد !!

وكالة مودرن محل وكالة أبو الروس :

ثم نصل إلى مسجد وسبيل وكتاب الأمير عبد الرحمن كتخدا المعروف باسم الشيخ مطهر عند العامة . وقد تم بناء هذه المجموعة عام ١٧٤٤م وفيه مدفن أم الأمير عبد الرحمن كتخدا . فمن هو الشيخ المطهر !! ولا تفوتنا هنا الإشارة بالدور العظيم الذى ارتآه الأمير عبد الرحمن كتخدا الذى رمم وصان وحفظ العديد من المنشآت الإسلامية فى القاهرة . ومنها الجامع الأزهر نفسه الذى دفن فيه . ومازالت بصمات هذا الأمير الرائعة موجودة ومسجلة على كثير من آثارنا .

ثم نجد باباً تكاد تأكله الإهانة والإهمال . هو باب وكالة أبو الروس بالصاغة يشدك مزلقانه الخشبى الضخم . ولكننا تركنا الباب للصيّاغ . أما الوكالة فقد تحولت إلى «بوتيك عصرى » لتجار الذهب والفضة واحتلت ورش الصياغة الدور الثانى بلا احترام لتاريخ الوكالة ثم ندلف إلى زقاق الطاووس ببابه الذى يذكرنا بأبواب الحارات وتحتل المحال والورش الأركان الأربعة للوكالة التى تتوسطها حديقة صغيرة وفسقية فيها بقية من رائحة تاريخ قديم !! ثم مخرج باب خشبى مصفح بالحديد تمامًا يطل على شارع المقاصيص حيث يوجد مسجد صغير ووكالة وسبيل جمال الدين الذهبى . .

العشق الألمانى يرمم آثار نجم الدين أيوب :

وعلى اليمين من شارع المعز نجد المدرسة المباركة التى أنشأها السلطان الأعظم الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وقبته . وهى الآثار التى ساهم فى ترميمها معهد الآثار الألمانية بمنحة من الحكومة الألمانية التى تُولى الآثار الإسلامية عناية خاصة . وبالمناسبة فإن الألمان أكثر شعوب الأرض عشقًا للسياحة الثقافية ، وفى مقدمتها الآثار المصرية إسلامية وفرعونية وقبطية . ومدرسة الصالح أيوب أقيمت بين عامى ١٢٤٣ م و ١٢٤٩م وانتهت قبيل وفاته بشهور .

وبعد قبة نجم الدين أيوب آخر سلاطين الدولة الأيوبية الفعليين ، ينتهى شارع الصاغة . . لنبدأ فى شارع النحاسين وكلها أجزاء من شارع المعز لدين الله . .

مجموعة السلطان قلاوون درة شارع المعز :

ونصل إلى درة شارع المعز . . إلى أغلى جوهرة فيه ، هى مجموعة السلطان قلاوون

التى تضم مدرسة وقبة ومسجد وبيمارستان السلطان قلاوون الذى أقيم بين عامى ١٢٨٤م و ١٢٨٥م . ومدخل المجموعة يحمل الاعلان التالى فوق الباب الرئيسى مباشرة: أمر بإنشاء هذه القبة الشريفة المعظمة والمدرسة المباركة والبيمارستان مولانا السلطان الأعظم الملك المنصور فى الدنيا والدين قلاوون الصالحى . والباب نفسه تحفة معمارية فهو مغطى بالكامل بالنحاس المشغول المنقوش من الجانبين . . وربما يكون المسجد هذا هو أعلى مسجد فى مصر .

واللافت للنظر أن هذه المجموعة المعمارية الرائعة تتعرض لعمليات إهمال رهيبة . وإذا كانت عمليات صلب المناطق المعرضة للسقوط قد تمت منذ ٣ سنوات مع حفر عدة آبار اختبار فى تربته ، إلا أن كل شىء متوقف تمامًا . . فهل ننتظر حتى يسقط هذا الصرح ؟ . . نقول هذا لأن هذا البيمارستان أنشىء كأضخم مستشفى ، كان السلطان قلاوون يجمع فيه المرضى فيتم تطهيرهم وإخضاعهم للعلاج والغذاء وتصرف لهم الملابس النظيفة وإذا أكمل المريض دجاجة كاملة كان هذا علامة عودة الصحة إليه فيخرج إلى الحياة العادية من جديد !! ونقول لوزارة الثقافة وللمجلس الأعلى للآثار : إن باب هذه المجموعة وحده لو كان ملكا لدولة أخرى لخططت له ميدانًا فسيحًا وحديقة تتوسطه ، ثم تضع هذا الباب العظيم رمزًا وتقديرًا لفن الخشب المطعم بالنحاس المشغول . . ولكن هذا الباب للأسف : ملك لمصر ، ولهذا تركناه !!

يبيعون « الشيشة » فى مدرسة الظاهر بيبرس !

وأمام مجموعة قلاوون الرائعة وبجوار مدرسة وقبة نجم الدين أيوب تقف بقايا مدرسة السلطان الظاهر بيبرس التى أقامها المؤسس الفعلى لدولة المماليك البحرية بين عامى ١٢٦٠م و ١٢٦٣م . ولكن كما أهملنا ـ على مر التاريخ ـ مسجد الظاهر بيبرس الفريد فى هندسته فى حى الظاهر وحولناه فترة إلى مذبح للإنجليز وأخرى مخازن لتجار الخيش . . أهملنا أيضا مدرسته فى شارع المعز فانهارت ولم يبق منها إلا البقايا . . والمؤلم أن تتحول هذه المدرسة إلى دكان لبيع مستلزمات الشيشة والمزاج . . وغيرها !!

وبجوار مجموعة السلطان الناصر محمد بن قلاون نجد « القبة الشريفة والمدرسة المباركة التى أقامها السلطان الأجل الملك الناصر ناصر الدنيا والدين الملك المنصور

الواجهة الشرقية لمئذنة نجم الدين أيوب بشارع المعز بعد أن قام الألمان بترميمها .

قلاوون . . وهي المجموعة التي بدأ في إقامتها الأمير العادل زين الدين كتبغا المنصوري عام ٦٩٥هـ ـ ١٢٩٥م . ثم أكملها السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ١٣٠٤م وهي من أوائل المدارس التي تضم أربعة إيوانات . وقد خضعت هذه المجموعة لأعمال ترميم عامي ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦م بالتعاون بين هيئة الآثار المصرية ومعهد الآثار الألماني بالقاهرة . وحول الإيوانات نجد غرف المدرسين وفصول الدراسة تحيط بالصحن المكشوف .

فإذا تركنا مجموعة السلطان الأب ، والسلطان الإبن ، نجد أمامها سبيلاً تركيا عثماني الطراز هو أحد سبيلين أنشأهما محمد على باشا أحدهما هنا في النحاسين أنشأه عام ١٨٢٨م على شارع المعز مباشرة وثانيهما أنشأه محمد على عام ١٨٢٠م في العقادين، في امتداد الشارع من الناحية الجنوبية . . ثم تلتصق به مدرسة النحاسين الأميرية وقد احتل مدخل المدرسة بائع للتمر الحجازي الملدن !!

مجموعة برقوق تنافس مجموعات أسرة قلاوون :

** وإذا كانت أسرة قلاوون المملوكية البحرية قد أقامت مجموعاتها العظيمة في شارع المعز . . فإن السلطان برقوق أقام مدرسة ومسجدًا ليمثل عصر العمارة المملوكي البرجي الشركسي بين عامي ١٣٨٤م و ١٣٨٦م . وعلى الباب النحاسي المطعم بالفضة نجد الدعاء للسلطان المنشيء . . « أعز مولانا السلطان الملك الظاهر برقوق أعز الله نصره » وعلى المدخل مكسلتان لجلوس الكسالى !! ثم تتصدر المدخل « تركاية » كان يجلس عليها السلطان برقوق ليحل مشاكل الناس ـ منتهى الديمقراطية ـ ثم تتناثر حجرات الحرس وحجرات لراحة الطلبة الدارسين بالمدرسة وسلالم تؤدي إلى غرف نوم الطلبة إلى السطح والمنارات . . وبجوار الغرف الأرضية نجد مخزنًا للطعام . . ومطبخًا لإعداده للطلاب والمدرسين الذين كانوا يدرسون للطلبة على المذاهب السنية الأربعة وسقف المدرسة والمسجد يرتفع إلى أكثر من ثمانية أمتار وهو تحفة فنية يندر مثلها في مصر كلها . . فالسقف مزدان بالكامل بنقوش عربية مطلية بماء الذهب احتفظت بكامل هيئتها لسبب واحد هو وجود سقف آخر يعلو السقف الأول . وتحمل هذا السقف أربعة أعمدة صنعت من جرانيت أسوان . أما دكة المصحف فهي مطعمة بسن

الفيل والعاج . والمحراب مطعم بالفيروز والمرجان والصدف . وحول وفوق كل رواق للدراسة نجد غرف سكن الطلبة وخانقاه للعبادة . .

وقد خصص السلطان برقوق قاعة ومدفناً دفن فيه زوجته وابنته فاطمة ، وتعلو المقبرة قبة مذهبة الجوانب وعلى النوافذ زجاج ملون معشق منقوش عليه عبارة : أعز الله مولانا السلطان الظاهر برقوق » أما حليات باب الضريح فقد صنعت من قطعة أرابيسك واحدة وكان يغطيها من الداخل شبكة من الفضة والسلك المصنوع من النحاس . . ولكنها اختفت !!

وتجاور مجموعة السلطان برقوق المدرسة الكاملية وتضم مسجد السلطان الكامل الأيوبى التى أنشئت عام ١٢٢٥ وهى من المنشآت الأيوبية القليلة الباقية بشارع المعز . . وأمامها نجد قصر الأمير بشتاك ويواجهه تماماً سبيل وكتاب عبد الرحمن كتخدا الذى خضع لعمليات ترميم كاملة . . وكأن هيئة الآثار المصرية الآن تحاول أن ترد الجميل للرجل الذى رمم كثيراً من آثار القاهرة . .

جامع الأقمر والترميم الكامل :

ثم نجد المسجد الوحيد الذى ينخفض مستواه عن سطح الأرض بهذا الشارع ، وهو مسجد الأقمر الذى أقيم عام ١١٢٥ م أى فى عصر الدولة الفاطمية . والمسجد يخضع بالكامل الآن لعملية ترميم شامل من إعادة بناء الأعمدة والأسقف والحوائط ، وغير معلوم الجهة التى تتولى الترميم !!

ولأن المثل يقول : طباخ السم بيدوقه . وعلى مذهب الاستيلاء على المبانى الأثرية نجد فى مدخل حارة الدرب الأحمر عند تقاطعها مع شارع المعز ، نجد إدارة تفتيش آثار شمال القاهرة قد استولت على مبنى قديم . . ومعها شرطة سياحة وآثار خان الخليلى . أى نطبق المثل : حاميها حراميها ولا عذر لورش الصاغة التى تحتل كثيراً من الوكالات التاريخية والمبانى الأثرية .

وعلى اليسار نجد مسجد وسبيل وكتاب سليمان أغا السلحدار الذى أقيم عام ١٨٣٧م وانتهى بعد عامين ، أى فى عصر محمد على باشا وكان اسم الشارع هنا ـ شارع أمير الجيوش البرانى !!وانتهى عصر النحاس ـ من شارع النحاسين ودخلنا عصر

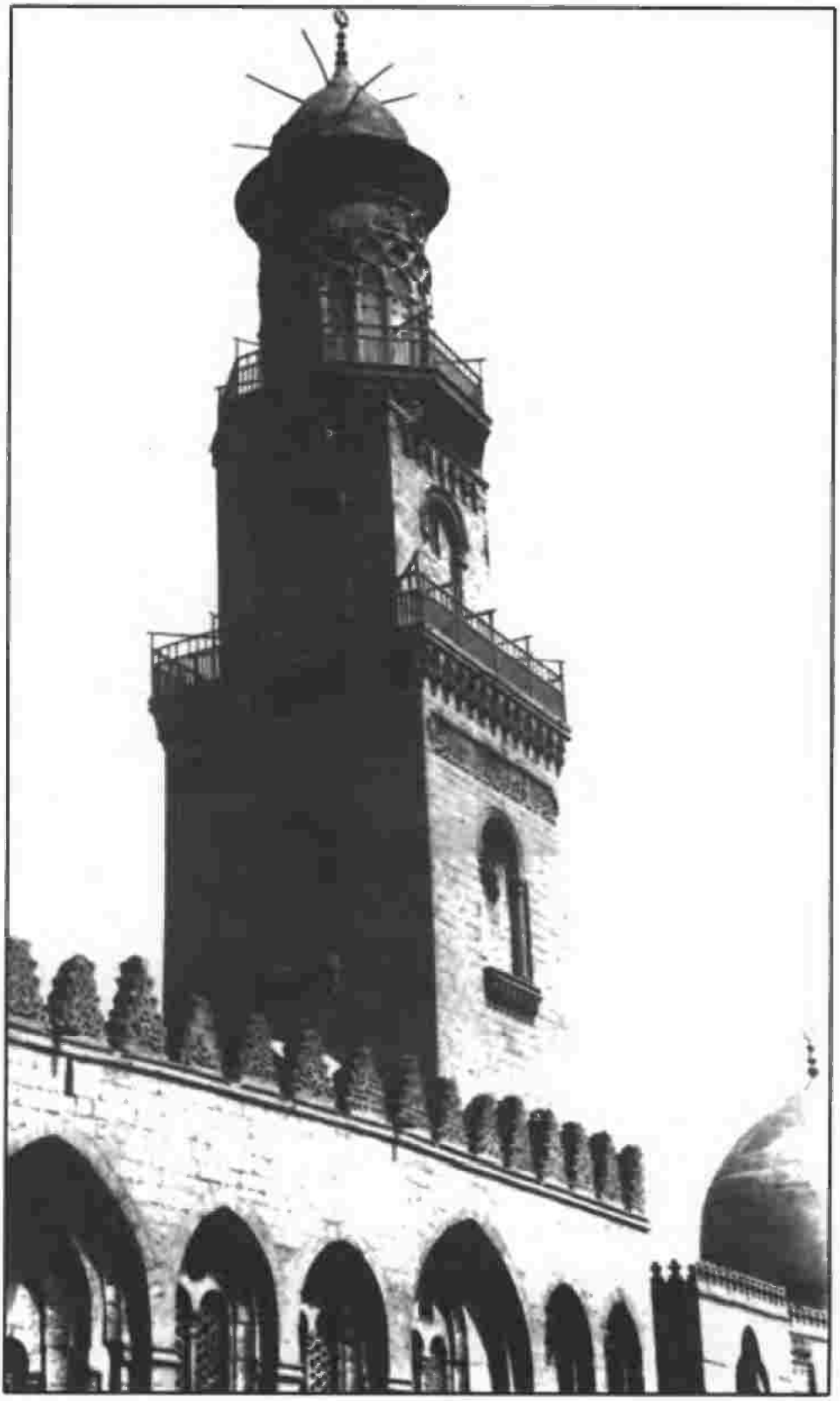

مجموعة السلطان قلاوون بالنحاسين .

الألومنيوم ، ثم ندخل إلى شارع الشوايين سابقًا عند تقاطع شارع المعز مع شارع الضبيبة ، لنصل إلى سوق الليمون والزيتون صيفًا وسوق الثوم والبصل شتاءً . عندما تتحول المساحة هنا وأمام واحد من أكبر آثار الشارع هو مسجد الحاكم بأمر الله . . تتحول إلى سوق للثوم والبصل !!

وعندما ندخل إلى صحن مسجد الحاكم بأمر الله المفترى عليه ، نتذكر على الفور صحن المسجد الأموى فى دمشق . . وقد خضع المسجد الذى بنى بين عامى ١٠٠٩م و١٠١٢م لعملية ترميم وصيانة وبناء كاملة تولتها جماعة البهرة الشيعية الشهيرة فى الهند .

ويتميز المسجد بمنارتين غير تقليديتين . ومن المؤكد أن هذا المسجد هو ثانى أكبر مسجد بنى فى العصر الفاطمى بعد الأزهر الشريف . . وإذا كانت عمليات الترميم طالت كل شىء إلا أن المنبر لا يتلاءم مع عظمة المسجد وتاريخه . . أما الأعمدة التى تحمل الأسقف فهى غير تقليدية أيضًا !!

ونصل إلى سور القاهرة الشمالى عند باب الفتوح . أما الباب فواضح أنه لم يغلق أو يفتح منذ ٢٠٠ عام . . وهو مصفح بالكامل من ناحية الخارج بالحديد والمداميك والمسامير الحديدية تمامًا . أما الباب من الداخل فهو من الخشب فقط . . لأن الهدف كان حماية الباب من أى محاولة لاختراقه من خارج السور . .

والباب الذى يحمل أثر رقم ٦ فى القاهرة ملاصق تمامًا لمسجد الحاكم تعلوه أبراج للحراسة والمراقبة وفتحات كان الجنود يصبون منها الزيت المغلى على كل من يحاول الاعتداء على القاهرة . . وكان هذا الجزء من شارع المعز قديمًا يحمل اسم : شارع باب الفتوح . ونجد مجاورًا له تمامًا درب المغاربة ربما آخر أثر للمغاربة الذين جاءوا إلى مصر مع القائد جوهر وكانوا من أنشط التجار .

الذوق .. مخرجش من مصر !

ويلاصق الباب الأيمن من الداخل ضريح صغير للغاية مدهون بدهان أخضر ويعلوه هلال صغير تنزل إليه من خلال ٧ سلالم وهذا الضريح له حكاية . . إنه ضريح سيدى حسن الذوق وكان رجلاً طيبًا تزعجه خناقات الفتوات أمام باب الفتوح

جامع الأقمر

. . وعندما عجز عن فض هذه المنازعات أعلن عن غضبه وقرر ترك مصر والخروج منها احتجاجًا . . وجمع « خلجاته » على قلتها وعندما همّ بالخروج من باب الفتوح خر ميتًا فدفنوه حيث مات ملاصقا لباب الفتوح من الداخل . . وصار اسمه مثلاً يرويه العامة . فإذا وقعت خناقة أو اختفى العدل وسادت الفتونة الغاشمة كنت تسمع من يهتف قائلاً : يا جماعة حرام . . دا الذوق مخرجش من مصر !! فتهدأ الأمور ويتصالح الكل ويتعانقون . .

. . فهل حقاً الذوق مخرجش من مصر ؟!

وزير مالية يموت مدينا !!

يعقوب بن كلس أول وزير فى العصر الفاطمى وكان مسئولاً عن كل مالية مصر . . مات مديوناً !! ولهذا حكاية .

. . فقد كان يهودياً بغدادياً . ثم أسلم وحسن إسلامه . جاء إلى مصر ثم سافر إلى مقر الدولة الفاطمية فى أفريقيا . . وعاد إلى مصر مع المعز لدين الله . الذى ولاّه الخراج وجميع شئون المال من أعشار وجزية كانت تجبى من أهل الذمة . . وأيضًا جعله مسئولاً عن الأحباس أى الأوقاف . وبعد وفاة المعز أبقاه الخليفة الجديد العزيز بالله ، بل زاد من مهامه حتى لقبوه بالوزير الأجل . ورغم يهوديته الأولى إلا أنه ألف كتبًا فى الفقه وفى الأديان والقراءات وفى آداب الرسول . .

** وعندما مات عام ٣٨٠هـ أمر العزيز قاضى القضاة محمد بن النعمان أن يتولى عملية الغسل . ثم كفنه فى ٥٠ ثوبًا منها ٣٠ منسوجة بالذهب . وأقام العزيز ثلاثة أيام لا يأكل على مائدته حزنًا عليه وأمر بتلاوة القرآن على قبره ٣٠ يومًا . .

** والغريب أنه عندما مات كان عليه دين بلغ ١٦ الف دينار سددها عنه الخليفة العزيز للدائنين وهو واقف على قبره . .

وهكذا مات وزير مالية مصر بعد أن تولى كل أمورها المالية على مدى ٢٠ عامًا . . مات مديونًا !!

فأين هذا من وزراء وحكام هذا الزمان ؟!

الشيشة والثوم عند باب النصر !

الذى يرى باب الفتوح الآن ، وما يجرى فيه . . يتحسر على حال الباب الذى تحدث عنه التاريخ بكل احترام وإجلال . .

** فقد كان الباب مخصصًا لخروج الجيوش الذاهبة للفتح والغزو والدفاع عن ديار المسلمين . وكان سلاطين مصر طوال العصور الفاطمية والأيوبية والمملوكية يجلسون عنده يستعرضون الجيوش ويتأكدون من استعدادها تسبقها فرق الموسيقى العسكرية . . ويقف أهل القاهرة يودعون الجيش الذاهب للفتح بالزغاريد والتمنيات .

الآن تغيرت الصورة . وبدلاً من مواكب الفرسان بخيولهم المطهمة بسروجها المذهبة وأسلحة فرسانها . . أصبحت ساحة هذا الباب ميدانًا لتجارة البصل والثوم شتاءً . . وسوقًا للزيتون والليمون صيفًا . .

وبعد مواكب الفرسان نجد الآن كل وسائل النقل من حمير وخيول وعربات كارو . . ثم كارو مصر الحديثة : سيارات السوزوكى . وكل هذا يمتهن تاريخ الشارع الأعظم . . ويدوس تاريخ باب الفتوح .

** أما باب النصر المجاور لباب الفتوح فقد كان بابًا لدخول الجيوش بعد عودتها للوطن ظافرة حاملة ألوية النصر وظل هذا التقليد التاريخى متبعًا طوال عهود العظمة المصرية . . وأحياه محمد على باشا الكبير حيث كان ابنه الفاتح الكبير ابراهيم باشا يحرص على الدخول من باب النصر كلما عاد لمصر منتصرًا .

ومن يتجول الآن فى المنطقة يخيل له أن مصر أصبحت وطنًا لأصحاب المزاج . . فأبرز ما يباع فيها الآن معدات المزاج بداية من الشيشة ومستلزماتها من « أحجار ولى ومبسم . . حتى غابة البوص المستخدمة فى « الجوزة » . . وتخرج من المنطقة التى كانت معقلا للتاريخ المشرف بانطباع أن هناك : شيشة لكل مصرى !!

وسبحان مغير الأحوال . .

نظافة مصر بين عهدين :

واحترمت مصر حكومات وسلاطين ـ أيام العز ـ الشارع الأعظم خصوصًا بين باب

الفتوح وباب زويلة . وتجاوب الناس مع احترام السلاطين للشارع وعظمته . . وظل الشارع محترمًا وذا مهابة طوال العصور الثلاثة العظيمة : الفاطمى والأيوبى والمملوكى بقسميه المماليك البحرية والمماليك البرجية أى الجراكسة . . وكان مظهر هذا الاحترام أن أنشأوا به معظم عماراتهم من مدارس ومساجد وبيمارستان . .

وكان للمرور بالشارع تقاليد وقواعد يحترمها الكل . .

مثلاً كان ممنوعًا أن يمر بالشارع أى حمل حطب أو تبن ولا يسوق به أحد فرسًا ، أو يمر به « سقاء » إلا بما يمنع تلويث الشارع بمخلفات هذه الدواب . أى كان واجبا ارتداء هذه الدواب « حفاضات » بلغة العصر الحديث . . وكانت الأحمال تغطى بما يمنع تناثرها فى الشارع . .

وكانت تعليمات الحكومة تلزم أصحاب المحال والحوانيت بأن يعلق كل منهم على حانوته قنديلاً لينير الطريق ، ومساهمة فى مقاومة الحرائق كانت التعليمات تلزم أصحاب هذه المحال بوضع زير مملوء بالماء أمام المحل يخصص لمقاومة الحرائق . .

** وخصصت الحكومة للشارع من يكنسه ويرشه بالماء ، ويزيل عنه القاذورات أولاً بأول ، وحتى لا يتطاير التراب فيؤذى المارة والتجار . . وبجانب هؤلاء ثم تعيين حراس يطوفون بالشارع والبيوت والمحال لحراستها ، وهو نظام بدأ العمل به منذ حكم العزيز بالله بن المعز لدين الله الفاطمى . .

وعندما جاء الحاكم بأمر الله الذى يرى البعض فى قراراته وتعليماته الغريب والطريف، اتخذ من القرارات ما يحمى الشارع ويحفظه ويبقيه نظيفًا . . إذ أمر ألا يدخل الشارع أى انسان راكبا حمارًا أو حصانا أو جملاً . . بل منع « الحمارة » من المرور فيه بحميرهم . وكان الشارع خصوصًا فى المنطقة التى كانت بين القصرين الكبيرين يغلق بعد صلاة العشاء بسلسلة ترمى فى المضيق بين القصرين فيتوقف المرور تمامًا بالشارع حتى فجر اليوم التالى . .

ترى لو عاد الحاكم بأمر الله أو أى من سلاطين مصر العظام ليتفقدوا الشارع الأعظم الآن . ماذا يقولون ؟ . . بل ماذا سيكون رد فعلهم وهم يرون الآن الحالة التى وصل إليها الشارع . ؟!

المنصورية .. الاسم الأول للقاهرة !

عندما أمر القائد جوهر ببناء عاصمة الدولة الفاطمية فى مصر أطلق عليها اسم : المنصورية . وقد بدأ بناء المدينة يوم ١٧ من شعبان عام ٣٥٨ هجرية الموافق ٥ يوليو ٩٦٩ ميلادية .

وعندما وصل الخليفة الفاطمى المعز لدين الله إلى مصر ودخل المدينة الجديدة عام ٣٦٢ هجرية أسماها : القاهرة وقيل إن جوهر الصقلى أطلق عليها اسم القاهرة لظهور نجم المريخ ـ وهو قاهر الفلك ـ فى الأفق عندما ألقى العمال أساس المدينة الجديدة . وهو القول الأكثر شيوعًا بين المؤرخين . .

الخانقاه التى يعرفها العامة بالخانكة ! !

فى عصر المماليك شاع بناء الخوانق أو الخانقاوات . . وهى جمع الخانقاه ، أو الخانكاه . وهى أماكن للعبادة . خصوصًا للمتصوفة . وقد أقاموها قرب الجبانات . أو عند الضواحى . لتكون بعيدًا عن ضوضاء المدن . ولكننا وجدنا بعض سلاطين المماليك يخصص غرفًا صغيرة للعبادة داخل مساجدهم التى بنوها فى الشارع الأعظم . شارع المعز لدين الله . ومن هذا ما نراه فى مدرسة وخانقاه ومسجد السلطان الظاهر برقوق الذى بنى هذه المجموعة المعمارية الرائعة بين عامى ١٣٨٤م و١٣٨٦م . وكان ملحقا بها غرف لتخزين الطعام ومطابخ لإعداده وتقديمه للطلاب الدارسين على المذاهب الأربعة وأيضًا للمتعبدين فى هذه الصوامع أو الخانقاه . .

ولقد حول العامة هذا الاسم إلى الخانكة !! بسبب ما أقيم هناك من خانقاه . وتحولت المنطقة من مكان للعبادة إلى مستشفى للأمراض العقلية .

أبواب التفاؤل فى شارع المعز :

** وبرع خلفاء الدولة الفاطمية فى اختيار أسماء المساجد والأعياد والمبانى . وكانوا بذلك من رواد الإعلام الدعائى حتى سلبوا لب كل المصريين ودخلوا قلوبهم . . فمن أسماء المساجد الكبيرة نجد فى مقدمتها : الأزهر . الأنور . الأقمر . الأفخر .

** وأطلقوا على أبواب القاهرة أسماء التفاؤل . فوجدنا فى السور الشمالى للمدينة : باب النصر وباب الفتوح ووجدنا باب الفرج غربًا وكان عرضه ١٠ أذرع . وباب التوفيق . أما باب زويلة فقد حمل اسم قبيلة زويلة وهى إحدى فرق الجيش الفاطمى التى قدمت إلى مصر بقيادة القائد جوهر الصقلى . .

« اللى » بنى مصر مجهول القبر والعنوان :

أليس غريبًا أن جوهر القائد الذى فتح مصر عام ٣٥٨ هجرية وأسس مدينة القاهرة غير معروف القبر ؟!

فها هو جوهر الصقلى الذى توفى عن ثمانين عامًا فى سنة ٣٨١ هجرية لا أحد يعرف قبره . وأنه ساد الاعتقاد فترة أنه دفن بالجامع الأزهر الذى أنشأه مع القاهرة المعزية . . ولكن المحقق العلامة أحمد زكى باشا أزال هذا اللبس عام ١٩٣٣م عندما قال إن جوهرًا المدفون بالأزهر غير جوهر القائد ولكنه طواشى حبشى اسمه جوهر القنقبائى الذى كان من أعيان القرن التاسع الهجرى ، وتولى منصب الخازندارية أيام السلطان الأشرف برسباى ، وتوفى عام ٨٤٤ هـ فى عهد السلطان الظاهر جقمق . وهو الذى أنشأ المدرسة الجوهرية بالجانب الشرقى من الجامع الأزهر .

** وعندما مات القائد جوهر الصقلى فاتح مصر ومؤسس القاهرة بأزهرها الشريف ، حزن عليه العزيز بالله بن المعز لدين الله ـ صاحب شارعنا الشهير ـ وأكرمه فى وفاته وأمر بأن يكفن فى ٧٠ ثوبًا بين مثقل وموشى بالذهب وصلى عليه العزيز ، وخلع على ابنه الحسين وجعله فى مرتبة أبيه ومنحه لقب القائد بن القائد . .

وهنا نسأل : هل تأثر الفاطميون ببعض طقوس الدفن المصرية الفرعونية القديمة فيما يتعلق بلف الجسد بطبقات متعددة من الكتان كجزء من عملية التحنيط لحماية جسد المتوفى من الهواء الذى يساعد على التحلل . .

هل تأثر الأسلوب الفاطمى فى الدفن بالأسلوب الفرعونى رغم أن هذا كان مخالفًا للدفن الشرعى فى الإسلام . .

نقول هذا لأن الفاطميين أثّروا كثيرًا فى حياة المصريين وسلوكياتهم فى الحياة وفى المهات . . فى الأفراح والاحتفالات . . كما فى الأحزان والمآتم . . وهل تلك من خصال الشخصية المصرية الجبارة التى أثّرت فى كل من أتاها سواء أكان غازيًا فاتحًا أو دائمًا مستقرًا . . نعم تلك هى طبيعة الأمة المصرية .